Archive of SID

مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية و آدابها، فصلية محكمة، العدد ١٥، صيف١٣٨٩هـ.ش/٢٠١٠م، صص ٢٥- ٤٧

جيكور دم الحياة في عروق شعر السّيّاب

الدكتور وصال ميمندي[١]

الملخّص

جيكور- وهي قرية صغيرة في محافظة البصرة- لم‌تكن مسقط رأس «السّيّاب» فحسب، بل هي نهر يروي بستان شعره، ويسقي أشجار قصائده، فهي دم الحياة الّذي يغذّي غرسة الأمل النّابتة في أعماق روح البشرية المدسوسة تحت أقدام ظلم الجبابرة وقساوتهم، الّذين تمثّلهم المدينة الّتي سيطرت ظلال موتها على حياة المدنيين، خاصّةالغرباء المهاجرين—حسب رأي «بدر»- هذه القرية هي كوكب سعد، يحلم الشّاعر جواداً أشهب ليطير إليه؛ يراها نجماً يضيئ اللّيل للتّائهين.

من يتصفّح ديوان «بدر شاكر السّيّاب»، ويجاريه في المراحل الأربع لحياته الأدبية من الرّومانسية والتّموزية والواقعية والذّاتية؛ يجد «جيكور» مصدر أيّ خير يتخيّل، ومظهر كلّ أمل يتأمّل. هي ذات حياة تَحيى وتُحيي الأموات، هي قلب نابض يجري دم الحياة في شرايين أبناء البشر. «جيكور» سعادة شاملة يحنّ الشّاعر إليها، ويأنس بها، وينسى أوقات شقائه وأحواله السّيّئة في المدينة بل هى كما قال الشّاعر عنها: « جيكور ديوان شعري ... ».

المفردات الرئيسّة: جيكور، السّيّاب، المدينة، الرّمز

تمهيد

من المشهور أنّ الأديب ابن بيئته، فالبيئة كلّ ما يحيط بالأديب من أحداث وأحوال وملابسات، هي المكان والزّمان والسّماء وظواهرها الماديّة والمعنويّة؛ البيئة هي النّاس ومجتمعهم وثقافتهم وحضارتهم

١. أستاذ مساعد في اللغة العربية و آدابها بجامعة يزد vesalm1387@yahoo.com

www.SID.ir

تاريخ الوصول: ٨٧/١٢/٤ تاريخ القبول: ٨٩/٢/٣٠

Archive of SID

وسياستهم وجميع ما يرتبط بهم. ومن الواضح أنّ لكلّ منها أثراً في الأديب وأدبه، في توجيه فكره وتعبئة آراءه، في إذكاء قريحته وإيقاظ شعوره، في إثارة أحاسيسه وإطارة خياله. فالأديب متأثّر بما يسود على حياته الخارجيّة؛ هو يأخذ ما حوله، ويعبّر عنه تعبيراً فنيّاً. الأديب يرى بيئته رأي الفنّان وكما يتأثّر بها، يستطيع أن يؤثّر فيها إذا كان أديباً حقيقيّاً. فالأديب الحقيقيّ يتأثّر بمجتمعه ثمّ يحاول أن يؤثّر فيه بما يقدّم إليه من قيم جديدة من خلال فكره وعاطفته وخياله. لذلك نرى أن بيئات الأدباء وظواهرها تنعكس في أدبهم.

أمّا الأدب القديم فلم يهتمّ بها اهتماماً خاصّاً، ولا نجد بين القدماء- كما نجد في العصر الحاضر- من اتّخذ القرية فصلاً أدبيّاً مستقلاً، أو موضوعاً عامّاً، أو رمزاً لأدبهم يبثّون فيه خوالجهم ويعرضون فيه أفكارهم وتخيّلاتهم؛ فهو إذا ذكرها ذكرها عَرَضا في سياق غرض من الأغراض، كما فعل النّابغة في داليته، إذ يقف قليلا في دار ميّة واصفا ما شاهد من آثارها.(المقدسي، ١٩٨٨-١٩٧٣،ص٣٣٤) قد تطوّرت البيئة العربيّة بعد استقرار الملك العربيّ في الشّام والعراق ومصر والأندلس، فتطوّر معها الشّعر الوصفيّ؛ وهكذا انصرف عن الصّحراء وأحوالها إلى الحواضر الجديدة، وما تحويه من بساتين ومتنزّهات وفواكه ورياحين ومجاري مياه وما إلى ذلك من ظواهر الحياة المدنية.(المصدر السّابق، ص٣٤٩) فظلّت الطّبيعة عند المولّدين وسيلة، لا غاية ومعرضاً لمشاهد جميلة، لا مصدر لإيحاءات روحية.(المصدر السّابق، ص٣٥٠)

و في الأدب الأندلسيّ كثيراً ما يتجلّى الرّكون إلى الوطن في حنين الأدباء إلى أوطانهم إذا اغتربوا عنها؛ ويصفونها وصفاً مادياً جعل المواهب والظّواهر الطّبيعيّة من البساتين والحدائق، والمياه والأنهار بارزة أمام القارئ. لشعراء الأندلس شعر كثير في هذا الغرض(الحنين إلى الوطن)، وقد زادوا على كثير من شعراء الأقطار الأخرى من حيث الوفرة أو قوة العاطفة أو رنّة الأسى أو لهفة اللّقاء نظراً لظروف الأندلس (الدّاية، ٢٠٠٠، ١٣١).

أمّا في الأدب العربيّ المعاصر فالنّزعة القرويّة تبدو ظاهرة، وفي آثاركثير من أدباء البلدان المختلفة العربيّة تلوح بارزة. «إن الطّبيعة في الأدب الحديث حيويّة عاقلة، يحسّ بضربات فؤادها، ويسمع رخيم إنشادها، ويلذّ له التّحدّث إلى أنهارها وغاباتها وجبالها ووهادها.» (المقدسي،، ص٣٥٣) يعتقد بعض الباحثين «أن المدينة –كموضوع- فكرة شديدة المعاصرة، ترتبط بالقرن العشرين ومنجزاته، والإشارات السابقة لاتعدو أن مواقف متناثرة لم تخلق من المدينة موضوعا شائعا.» (أبوغالي، ٤١٥، ١٠) قلّما نرى شاعراً أو كاتباً من المعاصرين لم يذكر موطنه وطبيعته في آثاره. من أبرز هؤلاء الفنّانين الشّاعر المعاصر العراقي «بدر شاكر السّيّاب» الّذي عندما امعنّا النّظر في شعره، نجد أنّه تأثّر ببيئته وخاصّةً ببيئته الأولى، قرية «جيكور»، تأثّراً شديداً. كانت «جيكور» مسقط رأسه ومدفن أمّه

www.SID.ir

Archive of SID

الحنون الّتي تعلّق الولد القروي بها شديداً؛ وهي الّتي أحبّها وذكرها في كثير من قصائده والشّاعر يقول عنها: «جيكور أمّي، جيكور ديوان شعري و...» (السّيّاب، ١٩٧١، ج١،ص٢٠٧).

فهو يجعل قريته «جيكور» أساس جميع تعابيره ويتصوّرها إنساناً يخاطبه ويتكلّم معه ويناجيه ويسأله الرّوح والنّور لأنّها ذات حياة وروح، ويرى سعادته وسعادة شعبه؛ وذكرياته الهنيئة ترجع كلّها إليها. يتمنّى الشّاعر لها كلّ ما يتمنّى الوطني العاشق لوطنه. فهذه القرية مرجع جميع اتّجاهاته الرّومانسية والرّمزية والواقعيّة الّتي جاء في شعره.

إضافة على الدّارسين والنّقاد العرب، بذل عدد من الباحثين الإيرانيين جهودهم حول «السّيّاب» وشعره واتجاهاته، خاصةً اتجاهه الرّمزي الّذي أكثر الشّاعر استخدامه كمسرح لتجسيد آماله وآلامه، واستعراضها. بحث بعضهم عن أسطورة «تّموز» في شعر شاعرنا هذا بحثاً وافياً، مشيراً فيه إلى «جيكور».(نيازي، ١٣٨٦،٤٧ -٤٩) وتكلّم بعضهم عن رمزية «السّيّاب» واستدعائه الشّخصيات القرآنية رموزاً. (پيشوايي، ١٣٨٥، ١-٢٢) مع ذلك لم نعرف أنّ المحقّقين درسوا «جيكور» - كرمز – دراسة مستقلة.

اتّجاهات الشّاعر

ولد «بدر شاكر السّيّاب» سنة ١٩٢٦ في قرية «جيكور» الّتي اسمها مأخوذ من أصل «جوي كور» الفارسي. عاش الطّفل القروي وكبر مع أقرانه فيها، ولعب بين حقولها ونخيلها. القرية محصورة بغابات من النّخيل الّتي تجري فيها الجداول والأنهار (بيضون، ١٩١١ ،صص ١٣ -١٤). إحدى هذه الجداول هي «بويب» الّتي ورد ذكرها كثيراً في شعر السّيّاب حتى صارت عنده إحدى رموز الخصب و الرّخاء،كما يقول:

«أنا في قرار بويب أرقد
في فراش من رِماله
من طينه المعطور
والدّمُ من عروقي في زلاله
ينثالُ كي يَهَب
الحياة لكلّ أعراق النّخيل» (السّيّاب، ١٩٧١، ج ١ ،ص ٣٢٥)

كان ملعب السّيّاب صغيراً بين أحياء جيكور، ومزارع بويب؛ فلذا غزل خيوط عمره وذكرياته وأمانيه بينهما، ومزج ثراهما بدموعه، وحفر لهما في قلبه ذكريات ذات جذور عميقة، وكان ممّا زاد في تعلّقه بهما أنّه دفنت أمّه في ثراهما؛ وأصبحتا أمّاً له حقيقة ومجازاً (عبّاس، ١٩٧٢، صص١٩ -٢٠).

www.SID.ir

Archive of SID

أُرسل المراهق القروي بعد إنهاء دراسته الابتدائيّة في إحدى القرى المجاورة، إلى البصرة لإكمال دراسته؛ ولكن ذهب بجسمه، وبقي قلبه وروحه في جيكور؛ بعد تخرّجه في المرحلة الثّانوية عام ١٩٤٢ هاجر إلى بغداد، وانتظم في سلك طلّاب دار المعلّمين، فرع اللّغة العربية، ثمّ الإنكليزية. لم تمض سنوات حتّى حصل على الشّهادة في آداب اللّغة الإنكليزية زماناً اشتدّت فيه الحرب العالميّة الثّانية؛ وحدثت في حياته وقائع مُرّة عديدة، مثل: الفقر، والحبس، والتّعذيب، والفصل عن العمل و...(السّيّاب، ١٩٧١، ج٢، صص٢١- ٣٤). كانت هذه كلّها ذات أثر عميق في نفس الشّاعر، وفي بناء شخصيته، وتوجيه فكره وخياله، وإرهاف إحساسه.

كان الفتى الغريب بالمدينة رومانسياً بطبعه ووضعه؛ ولكنّه ما تأثّر برومانسية العرب، بل تأثّر برومانسية الأدباء الغربيين، لأنّه قد اطّلع على الآداب الإنجليزية. يبدو تأثير هذا الأدب في بعض قصائده، نحو: «ذكرى لقاء»، «رئة تتمزّق» و«اتبعيني».

عندما أصبح السّيّاب في أوائل الأربعينات عضواً في الحزب الشّيوعي، أدرك بأنّ فاجعته ليست فرديّة خاصّة بل الفاجعة فاجعة شعبه؛ وهذا حوّل الشّاعر الرّومانسي إلى الشّاعر الواقعيّ الّذي يؤمي في قصائده إلى أنّ مصير الإنسان جزء من مصير المجتمع والتّاريخ؛ وشعره في هذه الآونة تعبير عن الاجتماع والأهداف السّياسيّة؛ هذا يتجلّي في بعض قصائده، مثل: «فجر السّلام»، و «حفّار القبور»، و «الأسلحة والأطفال».

بقي السّيّاب عضواً في الحزب الشّيوعي ثماني سنوات، ثمّ انفصل عنه واتّجه نحو القوميّة العربيّة، وتحوّل شعره اليوميّ بالشعر الأسطوريّ والرّمزيّ وأصبح الشّاعر تمّوزياً. في هذه المرحلة فقد تحوّلت نظرته إلى الحياة، فالموت أصبح فداء أسطورياً يمثّله تمّوز أو المسيح، فالدّم صار دم المسيح، لا دم العبيد و...، وكانت جيكور هي حلم هذه المرحلة، وأصبحت جيكور رمزاً للحياة والتّحرير والممات و.. .

وفي السّنوات الأخيرة من العمر عندما يُعاني من مرضه الناتج عن الأحداث الماضية والأحوال السّيّئة، عاد الشّاعر إلى ذاته. في هذه الفترة من حياته خيّم الموت عليه، وهو ينظر إلى كُلِّ شيءٍ من خلال الموت. ظلّ الموت حاكماً على فكره وخياله، وهذا يبدو من أثناء قصائد كـ «المبعد الغريق، ومترل الأقنان، وشناشيل ابنة الحلبي، وإقبال»؛ فالموت هوالّذي جعل «جيكور»، خرائب، فهو الحقيقة الفريدة في الوجود (انظر: المصدر السّابق، ج١، صص ت-ث ث).

القرية الخالدة

فتح شاعرنا عينيه على الحياة في «جيكور»، وترعرع فيها، ولعب مع أصدقائه الصّغار بين أشجارها، وغاص في مياهها، وتنفّس في جوّها النّقيّ؛ ولكن عندما ننظر إلى شعره يظهر لنا أنّ جيكور ليست

www.SID.ir

Archive of SID

عنده قرية صغيرة فقط تقع في جنوب البصرة. بل هي عنده عين جارية تشرب روحه من منهلها ويشفي غلالته منها. هو يقول:

«أفياء جيكورَ نَبعٌ سَال في بالي
أبلُّ منها صدى روحي» (المصدر السّابق، ج١، ص١٩٠)

ليست جيكور ملعب أوان طفولته فقط، بل هي حبيبة الشّاعر الّتي يذكّرها دائماً ويعشقها، نراه يخاطبها ويقول لها:

«إيه جيكور! عندي سؤال، أما تسمعينه
هَل تُرى أنتِ في ذكرياتي دفينه
وينشد مخاطباً إيّاها:
لولاك يا وطني
لولاك يا جنّتي الخضراء، يا داري
لم تلق أوتاري ريحاً فتنتقّل آهاتي وأشعاري» (السّيّاب، ٢٠٠٠، ج١، ١٢٢)

عندما نتصفّح ديوان الشّاعر نجده يذكر «جيكور» في أكثر قصائده وأشعاره من الرّومانسية والرّمزية والواقعية؛ ولكنّه كثيراًما يذكرها في أواخر حياته، أي في القصائد الّتي أنشدها وهو راجع إلى ذاته؛ فمثلاً نشاهده في قصيدة «الشّاهدة»- أنشدها عام ١٩٦٣- يقول:

«رُبَّ فتىً مُوَرِّدِ
يقرأُ من شعري عَلَى الصّحابِ
يقرأ في كتابي
قصيدة خضراء عن جيكورِ
غافيةً تحت غصون النّور» (المصدر السابق، ج١، ص٢٨٤)

أو يذكرها الشّاعر في قصيدة «فرار عام ١٩٥٣» وهكذا يُنشد:

«ريفٌ وراء الشّطّ بين النّخيلِ
يغفو على حُلم طويل طويلِ
تثاءبت فيه ظلال تسيل
كالماء بين الماء والعشب
يا ليت لي فيه
قبراً على إحدى روابيه
يا ليتني ما زلتُ في لعبي
في ريف «جيكور» الّذي لايميل

www.SID.ir

Archive of SID

عنه الرّبيع الأبيض الأخضر» (المصدر السّابق، ج١، ص٢٠٢)

وتتّخذ جيكور في شعره شكلاً إنسانيّاً تسري فيه طاقة الرّوح والفعل. وتبدو لنا بذرة ثورة لاتغلب، وبطولة كونية تؤكّد للشّاعر حضوره المستمرّ في العالم (السّيّاب، ١٩٦٧، ص١٦).

هي في رأيه رمز لبعث الأمّة وتحريرها كما نقرأ في قصيدة «العودة لجيكور»:

«جيكور! جيكور هل تسمعين؟

فلتفتح الأبواب للفاتحين» (السّيّاب، ١٩٧١، ج١، ص٤٢٦)

إنّها طاقة وجود، طاقة تكفل استمرار هذا الوجود، وهي رمز العمل لوجه العمل كالسّماء والمطر والعشب (السّيّاب، ١٩٦٧، ص١٦).

و«جيكور» رمز الحُبّ، والجود، والسّخاء، رمز الحياة والممات، وهي أمّه الّتى يعشقها ويحبّها ويحبّ كلّ ما يتعلّق بها من الأزهار والنّخيل والماء والتّراب و... لأنّها أمّه:

«تلك أمّي و إن أجئها كسيحا

لاثماً أزهارها والماء فيها والتّرابا

ونافضاً بمقتليّ أعشاشها والغابا» (السّيّاب، ١٩٧١، ج١، ص٤٢٦)

فصارت جيكور قرية خالدة مزجها الشّاعر بالفنّ والأدب، وكلّ ما امتزج بالفنّ يبقى خالداً على ناصية الدّهور.

كما لاحظنا هذه القرية الصّغيرة أثّرت في عواطف الشّاعر وأحاسيسه واتّجاهاته تأثيراً واسع المدى، وهذا الأمر يشرق من عنوان بعض قصائده، مثل: «أفياء جيكور» (المصدر السّابق، ج١، ص١٨٦)، «جيكور شابت» (المصدر السّابق، ج١، ص٢٠٥)، «مرثية جيكور» (المصدر السّابق، ج١، ص٤٠٣)، «تمّوز جيكور» (المصدر السّابق، ج١، ص٤١٠)، «جيكور والمدينة» (المصدر السّابق، ج١، ص٤١٤)، «العودة لجيكور» (المصدر السّابق، ج١، ص٤٢٠)، «جيكور وأشجار المدينة» (المصدر السّابق، ج١، ص٦٣٣) وأخيراً «جيكور أمّي» (المصدر السّابق، ج١، ص٦٥٦).

جيكور والمدينة

غادر ابن القرية دياره الحبيبة تاركاً قلبه فيها، قاصداً بغداد لمواصلة دراسته؛ والمدينة رأها جسداً بلا روح، وهو رأها كابوساً ردئ فاسداً يجرعه الرّاقد، والنّاس فيها تماثيل طينيّة يعجنها الخزّاف (السّيّاب، ٢٠٠٠، ج١، صص٢٤٢و ٢٤٣)؛ فلذلك أمسى وجوده نافراً للمدينة، رافضاً إيّاها، ويزخر شعره بهذا النّفور والرّفض. إنّه يرفضها سياسيّاً لأنّها تضطهده، وتحوّله إلى تابع مهان؛ ويرفضها اجتماعيّاً، لأنّها تحوّله إلى عبدمحروم.(المصدر السّابق، ج١، ص٢٦)

www.SID.ir

Archive of SID

كما يعرف من حياة السّيّاب أنّه بعد تجاوزه الرّومانسيه اتّجه إلى الواقعيّة الاشتراكيّة؛ وبعد هذه المرحلة دخل الشّاعر الرّيفيّ المرحلة الثّالثة من حياته الفكريّة، وهي التّمّوزيّة أو الواقعيّة الجديدة (١٩٥٦_١٩٦٠)؛ فانتقل الشّاعر من الشّعر اليوميّ إلى الأسطوريّ والرمزيّ؛ وكانت «جيكور» هي أمنية هذه المرحلة، وهو يعرف أنّها أمنية لن تتحقّق. جعل الشّاعر في حياة «جيكور» رمزاً لبعث الأمّة وتحرير الوطن، وفي اندثارها رمزاً للموت، وفي اخضرارها رمزاً للحياة. فجيكور هي العدن أو الفردوس المفقود كان مقيماً فيه، لكنّه طُرِد منه ؛ وهو يحاول أن يعود إليه (الحاوي، لا تا، ج٢، ص١٢٨). فقصيدة «جيكور والمدينة» إحدى قصائد هذه الفترة من حياة السّيّاب يقول فيها:

«وتلتفّ حَولي دروبُ المدينه
حبالاً من الطّين يمضغن قَلبي
ويعطين عن جمرةٍ فيه، طينَه
حبالاً من النّار يجلدنَ عُرى الحقول الحزينه
ويحرقن «جيكور» في قاع روحي
ويزرعن فيها ماء الضّغينه» (السّيّاب، ١٩٧١، ج١، ص٤١٣)

في هذه الأبيات يعبّر عن أسر شعبه بأنّ المدينة اختطفت الشّاعرَ وأسرته، فصارت دروبها تلتفّ حوله كحبالٍ من النّار، وتختنقه وتسعى في محو ذكرياته عن «جيكور»، وتُحرِق شجرة «جيكور» الّتى استقرّت جذورها في أعماق روحه، واحتبكت بعروق قلبه؛ وتزرع بدلها حَبّ الحقد في نفسه، وترُشّ ماء الضّغينه في قلبه، وتحثو رماد العداوة في وجهه. ثمّ يصف هذه الدّروب باحثاً عن نظيرها في التّاريخ، ويقول:

«دروبٌ، تقول الأساطير عنها
على مَوقدٍ نام: ما عاد منها
ولاعاد من ضفّة الموت سارِ
كأن الصّدى والسّكينه
جناحا أبي الهولِ فيها
جناحانِ من صخرةٍ في ثراها دفينه» (المصدر السّابق، ج١، صص٤١٣-٤١٥)

جمع الشّاعر جميع قواه، وجهّز نفسه، وصبَّ كلّ غضبه ونفوره على هذه المدينة القاتلة الظّالمة. يتصوّر أن الموت أظلّ عليها، ولاخلاص لأحدٍ من الموت فيها، ويجعل هذه البلدة تنّيناً يلفّ حباله على أهاليها، ويحرقهم بالنّار الّتي يُخرجها من أفواهه المشبعة المشؤومة؛ ثمّ يشبه الصّوت والسّكوت فيها بجناحي أبي الهول الصّخريّين، ويشيرأنّ أباالهول تمثال الجمود، ورمز الظّلم والضّيم، واستعمله واستخدمه كرمزٍ من الرّموز الّتي شاعت في الأدب التّمّوزي.

www.SID.ir

Archive of SID

ثُمَّ يستمرّ «بدر» في بيان مصائب المدينة، وهكذا يسألُ:

«فمن يفجر الماءَ منها
عيوناً لتُبنى قُرانا عليها؟
ومن يُرجع اللّهَ يوماً إليها؟» (المصدر السّابق، ج١، ص٤١٥)

يتمنّي بدر في أسلوب الاستفهام أن يأتي مُنجٍ، ويستخرج الماء من تحت أقدام هذا الهيكل الهجريّ حتّى تبنى القُرى من جديد، لأنّ القرية عند الشّاعرمستقرّ الحياة وموضع العدل والأمان. هويطلب الماء لرجوع الحياة والنّشاط إليها، ويترجّى أنّ هذا المنجي يُرجع اللّهَ الّذي غاب عنها إليها؛ فيُنشدُ:

«وفي اللّيل فردوسها المستعاد
إذا عَرّش الصّخرُ فيها غصونَه
ورصّ المصابيحَ تفّاحَ نارِ
ومدّ الحوانيتَ أوراق تينه
فمَن يُشعل الحُبّ في كلِّ درب
وفي كلّ مقهىً وفي كلّ دارِ
ومَن يُرجع المخلبَ الآدميَّ
يداً يمسح الطّفلُ فيها حبينه
وتخضلّ من لمسها
من ألوهية القلب فيها
عروق الحجار؟
إذا سبّحت باسم ربِّ المدينه
بصوت العصافير في سدرة
يَخلق اللهُ منها قلوبَ الصّغار» (المصدر السّابق، ج١، ص٤١٥)

رأى السّيّاب أنّ البستان والحديقة في المدينة ليسا حقيقيّين، وأنّ أشجارهما هي الصّخر الّذي ارتفعت غصونه الحجريّة تظلّل على أهل المدينة، ورصّ الصّخر المصابيح فيها كالفواكه النّاريّة، وانتشر في حوانيتها أوراق التّين الّذي نبت على هذا الصّخر. كما يذكر الشّاعر مساوئ المدينة (بغداد) في قصيدة أخرى قائلاً:

«ويسكب البدر على بغداد
من ثقبَي العينين شلالاً من الرّماد» (السّيّاب، ٢٠٠٠، ج١، ص٢٤٢)

في المدينة كُلّ شيءٍ بلا إحساسٍ وعاطفة، والحُبّ مفقودٌ في كُلّ ضواحيها، في بيوتها و مقاهيها ودورها؛ فعلى ذلك يتمنّي أن يأتي إلهة الحبّ ويُشعلَ مصباح الحُبّ في شوارع المدينة ودورها وبيوتها

www.SID.ir

Archive of SID

المُظلمة المحرومة من العشق والحُبّ. هو يبحث في سماء خياله عمّن يحوّل مخالب الإنسان الخشنة بيدٍ عطوفٍ رحيمةٍ تمسح رؤوس الأطفال وجباههم، وتُهدِّئ آلامَهم؛ الأطفال الّذين خلق اللّه قلوبهم من شجرة السّدر. ومن لمسته هذه اليد الرّحيمة تبتلّ عروقه الحجاريّة، وتتحوّل إلى عروقٍ يجري فيها دمُ الحُبّ والعشق والحياة. استمرّ قوله هكذا:

«وبين الضُّحى وانتصاف النّهار
رحى معدنٍ في أكُفِّ التّجّار
لها ما لأسماكِ جيكور من لمعةٍ واسمها من معانٍ كُثار
فمَن يُسمع الرّوح؟
من يَبسُط الظّلّ في لافح من هجير النّضار؟
ومن يهتدي في بحار الجليد إليها
فلا يستبيحُ السّفينه» (السّيّاب، ١٩٧١، ج١، صص٤١٥-٤١٦)

أدام بدر ذكر فجائع المدينة وبيّن أنّ إله تجّار المدينة ومعبودهم رحىً معدنيّة تدور بين أصابعهم نهاراً، ولها لمعان كلَمَعان أسماك «جيكور»؛ ولكن اسماؤُها تختلف عنها.

هو يدّعي أنّ صوت الّذي يسبّح ربّ المدينة مثل صوت العصافير بين أغصان شجر السّدر؛ وإثر هذه الأقوال يطلب منجياً يُوصل الصّوت إلى الرّوح، ويبسط الظّلّ على النّبات المحروقة المكسورة المدسوسة، الشّاعر يحلم سفينة النّجاة، ويُمنّي نفسه بأنّه يجيءُ الّذي يهتدي هذه السّفينة في تلك البحار الّتي ماؤُها مجمّدٌ لشدّة البرودة النّاشئة من فقدان حرارة الإحساس والعاطفة فيها. هو يشكو من شدة حَرّ هذه المدينة، ويطلُب ظلّاً حتى يلجأ إليه، ويبغي حرارةً لكي تُذهِب الثّلوج الملتصقة من سطح أرضِ المدينة، الثّلوج الّتي تمنع حركة السّفينة. فكما رأيناه يذكر للمدينة أحوال متغايرة متضادّة تحكي عن شدّة انزجاره منها، فلذا ينسب إليها كلّ شرّ يعرقل الحركة. بعد تصوير المدينة وبيان ما فيها من الظّلم والضّيم والظّلمة والضّلالة يرجع الشّاعر إلى «جيكور»- أي إلى نفسه- ويسأل نفسه متحيّراً:

«وجيكور مَن غلّق الدّورَ فيها
وجاء ابنها يطرقُ البابَ دونَهُ؟
ومَن حَوّل الدّربَ عنها
فَمِن حَيثُ دارَ اشرأبّت إليه المدينة؟ » (السّيّاب، ١٩٧١، ج١، ص٤١٦)

هو يرجع إلى جيكور -موضع الحبّ والأمل- ولكن يَجدها مقهورة مغلوبة، ويرى ابنها- أي نفسه- تركها وذهب إلى باب الآخرين، وبهذا الكلام يبثّ شكواه من نفسه ومن القرويّين الّذين غادروا قُراهم متوجّهين إلى المدن. هو يُعاني من ظلم المدينة القاهرة على القرية المقهورة، وهكذا

www.SID.ir

Archive of SID

يسألُ: «ومَن حوّل الدّرب عنها؟ فمن حيثُ دار اشرأبّت إليه المدينة»، وبذلك يتحسّر على هذه الحالة، ويشكو من سيطرة المدينة على «جيكور». ثمّ يقوم بوصف «جيكور» وهكذا يصفها:

«وجيكور خضراءُ مسَّ الأصيلُ ذرى النّخل فيها
بشمس حزينة
يمدّ الكرى لي طريقاً إليها:
من القلب يمتدّ، عبرَ الدّهاليز، عبرَ الدُّجى والقلاع الحصينه
وقد نام في بابلَ الرّاقصون
ونام الحديد الّذي يَشحَذونَه
وغشّى على أعين الخازنين، لُهاث النُّضار الّذي يحرسونَه:
حصاد المجاعات في جنّتيها» (المصدر السّابق، ج١، ص٤١٦)

يصف السّيّاب «جيكور» بلون الحياة والنّشاط، باللّون الأخضر؛ ولكن شمسها عند الغروب فوق النّخيل شمس حزينة صفراء، لونها لون المريض المحتضر الّذي المنطرح تحت أقدام الموت. الكرى والنّوم يَهديان الشّاعر إلى الشّمس، أي إلى جيكور، يحلم الشّاعر بجيكور وهذا عن طريق يمتدّ من قلبه، ويعبر بيوت جيكور والقلاع الحصينة في اللّيل، وبينما نام الرّاقصون في المدينة (بابل) ونام كلّ حديد أحدّوه لاضطهاد القرية؛ و رقد حرّاسها وخازنيها وغفلوا من أسلحتهم الّتي أَعدّوها للظّلم على «جيكور» وأهلها وعلى الشّاعر؛ يغتنم الشّاعر الفرصة السّانحة، ويرجع في رؤياه وحلمه إلى مسقط رأسه، ومدفن أمّه، وموضع ذكرياته الخالدة؛ ويراهاحزينةً كئيبةً مظلمةً، وهكذا يُبرز آلامه الوفيرة واصفاً ريفه:

«رحىً من لظىً مرّ دربي عليها
وكَرمٌ عساليجُه العاقراتُ
شرايين تمّوز عَبرَ المدينه
شرايينُ في كُلّ دارٍ وسجن ومقهى
وسجنٍ وبادٍ وفي كُلّ ملهى
وفي كلّ مستشيفات المجانين
في كُلّ مبغىً لعشتار...» (المصدر السّابق، ج١، صص٤١٦-٤١٧)

يذكر السّيّاب أن في المدينة استعماراً ودماراً، فيها مستشفيات المجانين، فيها الفقر والمسكنة، في كل دورها ومقاهيها وسجونها و... هويقول: النّار وغصون الكرم العاقرة هي عروق« تمّوز» وحبيبته «عشتار». رأى بعض النّقاد أنّ الأسطورة التمّوزيّة قد ماتت على يد «السّيّاب» لكثرة تكرارها في وجهين لا حيدة عنهما، فإمّا «تمّوز» كما هو في الأسطورة، إذا كانت رويته إيجابية ونظرته عامّة

www.SID.ir

Archive of SID

للمجتمع؛ وإمّا «تمّوز» كما وظّفه «إليوت» تقريباً في قصيدته «الأرض الخراب»، إذا كانت نظرته سلبيّة ومنضبطة ضمن إيقاع خصوصيته المتقلّبة؛ منها قصيدته «جيكور والمدينة»، إذ يجعل تمّوز رمز العُقم والقحط والجدب، وجعل «عشتار» رمز الخيانة والبغي. (المحاميد، ٢٠٠٧،)، بينما أنّه يموت من أجل أن يحيا ويُحيي؛ يشكّل موته موتاً للخصب، وتشكّل عودته عودةً للحياة؛ إذن فهو واهب الحياة للبشريّة يجدّد خَصبها؛ وفي شعر السّيّاب تمّوز هو الرّمز الّذي تتوحّد فيه كُلّ رموز التّضحية من أجل إعادة الحياة ودفع الموت بشكل مأساويّ حادّ.

« يُطلعن أزهارَهنّ الهجينه:

مصابيح لم يُسرَج الزّيتُ فيها وتمسسه نار

وفي كُلّ مقهىً وسجن ومبغىً ودار:

دَمي ذَلك الماءُ هل تشرَبُونَه

ولحمي هو الخُبز لوتأكلونَه

وتَمّوز تبكيه لاةُ الحزينه» (المصدر السّابق، ج١، ص٤١٧)

أزهار المدينة عند السّيّاب مصابيح ما فيها زيتٌ، و لم تمسّه نارٌ؛ بل زيتها دم الإنسان الّذي يمثّله «بدر»؛ يرى الشّاعرماء- المدينة من دمه: «دمى ذلك الماء هل تشربونه؟» ويرى الخبز الّذي تأكله المدينة هو لحوم شعبه المقهور. وأخيراً يشير إلى الأسطورة الّتي قائلة بأنّ تمّوز مات وتبكي عشتار عليه ويقول: «وتمّوز تبكيه لاةُ الحزينة.»

كما رأينا، ربّ المدينة عند الشّاعر، رحىً صفراءُ تتبادلها أكُفّ التّجّار، وتلمع لمعانَ السَّمَك في «جيكور»، ويسمّيها أهل المدينة «النُّضار» ولهذا الإله لهاث امتدّ في كُلّ دارٍ سجن ومقهىً؛ كأنّه كرمة غصونها من عروق تمّوز، وقد أطلعت هذه الكرمة ثمراتها في كُلّ مستشيفات المجانين وفي كُلّ مبغىً لعشتار، وكانت هذه الثّمرات مصابيح بلا زيت وبلا حرارة، وقدكتب عليها هذا القول الّذي يُشابه ما قال المسيح (ع): «هذا دَمي وهذا لحمي» ثمّ يقول: تمّوز مات. ولكنّ الشّاعر لايأس، فلهذا يقول «تبكيه لاة الحزينة» أي تنوح عشتار عليه، وتريد منه أن يَرجع إلى جيكور ويجعلها حيّةً خصبةً؛ هكذا يُجسّم السّيّاب «عشتار» وبكاءَها على تمّوز لنا ويقول:

«ترفَع بالنُّواح صوتها مَعَ السَّحَر

ترفع بالنُّواح صوتها كما تنهَّدَ الشّجَر

تقول: يا قطارُ يا قَدَر

فَتَلتَ_إذ قتلتَه_ الرّبيعَ والمَطَر

وتَنشرُ «الزمانُ» و«الحوادثُ» الخَبَر

ولاة تستغيث بالمضمِّد الحفَر

www.SID.ir

Archive of SID

أن يُرجعَ ابنها: يديه، مُقلتيه، أيّما أَثَر
وتُرسِلُ النُّواحَ: يا سنابلَ القمر
دم ابنيَ الزّجاجُ في عروقه انفجَر
فكهرباءُ دارنا أصابت الحَجَر
وصَكَّهُ الجدارُ، خَضَّه، رماه لمحةَ البَصَر
أرادَ أن يُنير، أن يبدِّد الظلام، فاندَحَر
وتُرسِلُ النّواحَ... ثمَّ يصمت الوَتَر» (المصدر السّابق، ج١، صص٤١٧-٤١٨)

كما قُلنا: لاييأس السّيّاب في آماله وأحلامه، ويرجو أن يرجع إله الخصب والحياة ويُنجي شعبه المظلوم الّذى تمثّله «جيكور»، من سيطرة الظّالم الّذي تجسّد في هيئة المدينة الملتفّة حبالها على «جيكور»؛ ويخيّلُ هذه الأمانيَ في نوحة إلهةٍ تنوح على تمّوز، وتصيح آلامها وتُنادي بآمالها، وبكاءُ هذه الآلهة على نعش تمّوز رمز لابن جيكور المقتول الّذى تبكيه أُمُّه. الآلهة الباكية تصيح وتقول: «يا قدر قتلتَ_إذقتلتَه_الربيعَ والمعطر» والشّاعر في هذا يذكُر حناية القَدَر الكبيرة، وهي قتل الرّبيع الّذي هو مظهر النّشاط والطّراوة والاخضرار، ويتّهم القدر بقتل المطر الّذى هو رمز الحياة والإحياء، وبموته ماتت الحياة والأحياء. ورّى «بدر» في إتيان« الزّمان» و «الحوادث» لأنّهما اسما جريدتين أيضاً تنتشران آنذاك .ثمّ يظهر في القصيدة عنصر العاطفة حيث يقول: «ولاة تستغيث بالضمّد الحفَر أن يُرجعَ ابنها: «يديه، مقلتيه، أيّما أثَر»؛ وبعد هذا التّصوير العاطفي يذكر السّيّاب أنّ دم ابن جيكوركان في زجاج،وكان موته بانفجار هذا الزّجاج في عروقه، وبإصابة كهرباء البيوت على الحجر، وصكّ الجدار، ورمايته في آنٍ قصير كلمح البصر. ثُمّ تتمثّل آماله في رجاء عودة تمّوز، وتبديد الظّلمات بيده، وإنارة المدينة أو القرية بنور عقله وقلبه؛ وهكذا يأمل: «أراد أن يُنيرَ، أن يُبدّد الظلام...فاندَحَر»

فالشّاعر يكرّر قوله عن جيكور ويُنشدُ:

«وجيكورُ خضراءُ
مسَّ الأصيلُ
ذرى النّخلِ فيها
بشمسٍ حزينه
ودربي إليها كومض البروق
بدا واختفى
ثمّ عاد الضّياء فأذكاه
حتّى أنار المدينه

www.SID.ir

Archive of SID

وعرّى يَدي من وراء الضِّماد
كأن الجراحاتِ فيها حروق
وجيكور من دونها قام سُورٌ
وبوّابةٌ
واحتوتها سكينه
فَمَن يَخترقُ السّور؟
من يفتح البابَ
يُدمي على كُلّ قفل يمينَه
ويُمناي لامخلب للصّراع فأسعى بها
في دروب المدينه
ولاقبضةٌ لابتعاث الحياة من الطّين
لكّنها محضُ طينه
وجيكور من دونها قام سورٌ وبوّابةٌ
واحتوتها سكينه» (المصدر السّابق، ج١، صص٤١٨-٤١٩)

ذكر الشّاعر أنّ المدينة تتوهّج بتفّاحات نار كهربائية، تقابل جيكور الخضراء الّتي مَسَّت شمسٌ حزينه صفراء اللّون رؤوس نخيلها؛ وفي هذه الأبيات يتقابلان ضوءانِ: ضوءُ المدينة الّذي هو ساطعٌ مِن برق الذّهب بين أصابع التّجّار، ومِن الكهرباء الّتي صعقت ابن جيكور، وضوء الشّمس الحزينه عند اصفرارها في الغروب؛ ثمّ يقول الشّاعر: إنّ طريقي إلى جيكور كبرقٍ خفيفٍ بدا واختفى. يُشير السّيّاب بهذا الكلام على برق الأَمَل الّذي يلمع في أعماق قلبه وروحه وفكره، ويُظهره هكذا: «ثمّ عاد الضّياءُ فأذكاه. حتّى أنار المدينة...» وهذا النّور والضّياء هو الّذي يأمله الشّاعر لإنارة المدينة المظلمة الباردة؛ في هذا المقال يطلب السّيّاب النّجاة والإصلاح حتّى لعدوّه وعدوّ شعبه، للمدينة. هو يرى مستقبلاً مزدهراً يُنجي ابن جيكور من سيطرة المدينة القاهرة، ويفكّ القيود من أيادي الأسارى؛ «وَعرّى يَدي من وراء الضّماد».

ولكنّ «بدر» يرجع مرةً أخرى إلى الواقع- وهو أَسرُ جيكور وابنه بأيدي المدينة وحبالها- ويقول: «جيكور مِن دونها قام سورٌ وبوّابة واحتوتها سكينه». وحينما يرى هذه الحالة، يدعو مَن يأتي ويخرق الأسوار الّتي حول جيكور ويفتح بابها، هو ينادي من ضحّى بنفسه في سبيل تحريرها، وقوله: «مَن يفتح البابَ. يُدمى على كُلّ قفلٍ يمينه» يشير إلى هذا؛ والدّم هاهنا رمزٌ للتّضحيه والفداء. وربّما تّموز في هذه القصيدة يكون الشّاعر بنفسه، و الجُرح والدّم رمزانِ للولادة الجديدة، لأنّنا نجده في قصيدته الأخرى « تّموز جيكور» جعل الجُرحَ رمزَ النّور والحياة وقال: «جيكور ...ستُولدُ. النّور

www.SID.ir

Archive of SID

سيُورق والنّور ...جيكور ستُولد مِن جُرحي...».(السّيّاب، ٢٠٠٠، ج١،صص٢٢٣و٢٢٤) الشّاعرُ يريدُ السّلم والرّخاء لجيكوره، ولايريدُ القدرة للحرب والنّزاع؛ فلذا نراه يقول : «يُمناي لامخلبٌ للصّراع فأسعى بها في درُوب المدينه» هو لايبغي القدرة للذّهاب على دروب المدينة، هو لايريدها للظّلم على النّاس،هو لايقصد أن يحذو حذو المدينة في استغلال النّاس واستثمارهم؛ بل يحنّ السّيّاب إلى أرضه وشعبه بطلب اليد والقدرة حتّى يعيشوا في عزّة ورخاء، ولايعيشوا في ذلّة وعناء؛ وإذا جاء «جيكور»، لاقى الواقع المزعج، وهو أَسرُ «جيكور» (أسر البشر) الّذي يُعاني من أجلها الشّاعر ويرجع إلى نفسه، وينشدُ مؤمّلاً بتحريره وتحرير شعبه شاكياً من عدم قيامهم:

« وجيكور
مِن دونها قام سورٌ
وبوّابةٌ
واحتوتها سكينه »

في هذه الأسطر الأخيرة من القصيدة اعترف بدر بعجزه التّامّ عن تحقيق رؤياه، وإن كانت الرّؤيا نفسها ما زالت ماثلة أمام عينيه (بلاطة، ١٨٧١، ص١٠٢).

العودة لجيكور

السّيّاب يعاني من ظلم الاستعمار، وتزعجه سيطرة الاستثمار؛ ولكنّه لا يستسلم أمام هذه الضّغوط المتوالية، ويبحث عن طريق للفرار من المدينة الّتي هي مهبط الظّلم ومقرّ العارومنبت الجور. هو يريد أن يهرب من جميع المصائب هذه إلى مستقرّ الحياة والشّرف وموعد الحرّية والعزّة وينبوع الرّخاء والسّعادة، ويجد ذلك كلّه في أرضه الحبيبة وموطنه العزيز «جيكور». ينظر بدر في الآفاق باحثاً عن الكوكب الّذي يعلن ميلاده الخاصّ، ويسري على جواد الحلم الأشهب من المدينة إلى جيكور، ليقدّم طعامَه للجياع، ودموعَه للبائسين، ودعاءَه لأن يقذف البركان نيرانه، ويرسل الفرات طوفانه. (المصدر السّابق، ص١١١) يحبّ الشّاعر أن يرجع ويعيش بين النّاس مشتركاً في مصائبهم، مشاركاً في نجاهم، وقوله الآتي يدلّ على أنّ أمله هذا –تنحية شعبه المتظلّم- لا ينطفئ في قرارة نفسه:

«على جواد الحُلُم الأَشهبِ
أسريتُ عَبرَ التّلال
أهرب منها، مِن ذُراها الطّوال
مِن سوقها المكتظّ بالبائعين
مِن صبحها المُتعَبِ

www.SID.ir

Archive of SID

مِن ليلها النّابح والعابرين
من نورها الغيهب
من ربّها المغسول بالخمر
من عارها المخبوء بالزّهر
من موتها السّاري على النّهر
يمشي على أمواجه الغافية
أواه لو يستيقظ الماء فيه
لو كانت العذراء من وارديه
لو أنّ شمس المغرب الدّامية
تبتلّ في شطيّه أو تشرقُ
لو أنّ أغصان الدّجى تورق
أو يُوصَدُ الماخور داخليه» (السّيّاب، ١٩٧١، ج١، ص٤٢٠)

صوّر الشّاعر في سماء خياله بُراقاً سريعاً حتّى يركبه ويبتعد من المدينة... هو يريد جواداً أبيض لاشية فيه، بريئاً من الشّقاوة والعار، للخلاص من الموت الجاري في الأنهار، من الفساد المخفي تحت الأزهار. في المدينة كلُّ شيءٍ مظلم وشنيع ومكروه وقبيح. فيها النّاس يبيعون الأعراض والاستقلال، ويشترون الحبوب والأغلال، فلايوجد في أسواقها وشوارعها سوى التّجّار الّذين يُجارون الاستعمار في استثمار شعبهم.

هُنا ليس الصّبح ميعاد النّشاط والحياة، ولاميقات الحركة والعظمة، بل يحين الصّبح وهو تعبان من اللّيل وظلمها. في المدينة، العار مستتر تحت ستار الأزهار، والموت يسير في سفن على الأنهار، ومنه يسقى النّاس والأشجار، فكلٌّ فيها أموات ونيام، حتّى الماء نائم وبنومه مات النّاس والنّبات والجماد في الأرض والسّماء؛ والشّاعر يتمنّى يقظة الماء-سائل الحياة-؛ هو يدعو الماء حتّى تغتسل الشّمس الدّامية فيها وتخصرّ، هو يبغي الماء حتّى تروى الأشجاروتورق. يرى الشّاعر هذه المظالم والمفاسد، ويهيّأ لنفسه جواداً سريعاً للفرار منها، وللّجوء إلى مأمنٍ لايوجد فيه شيء من هذه الظّواهر المشؤومة، فيُجهّز بُراقه الخياليّ وهكذا يُطيّرُه إلى ذلك المأمن، إلى «جيكور»:

«على جواد الحُلُم الأَشهبِ
و تحت شمس المشرق الأخضرِ
في صيف جيكور السّخيّ الثّري
أسريتُ أطوي دربيَ النّائي
بين النّدى والزّهر والماءِ

www.SID.ir

Archive of SID

أبحث في الآفاق عن كوكبِ
عن مولدٍ للرّوح تحت السّماءِ
عن منبعٍ يُروي لهيب الظّماءِ
عن منزلٍ للسّائح المُتعبِ» (المصدر السّابق، ج١، صص٤٢١-٤٢٢)

الشّاعر في هذا الشّطر من رؤياه يصوّر جيكور، ويُقابلها بالمدينة. كان في المدينة «شمس المغرب دامية»، ولكن شمس جيكور شمس مشرق أخضر. هنالك البائعون يستثمرون النّاس، و هنا جيكور ينبوع السّخاء والثّراء. في المدينة المشؤومة، العار مخبوء تحت الأزهار المصنوعة، و هنا في القرية المحبوبة، الزّهر والنّدى. في ذلك المكان الظّالم يجري الموت في الأنهار ويقتل البشر؛ وفي هذا المأمن الهاديء يجري الماء ويصنع الحياة. فالشّاعر يبحث عن مُنجٍ راكباً جواد خياله، هو ينظر إلى السّماء حتّى يشاهد طلوع كوكب ذلك المنجي، هو ينتظر حتّى تولّد الرّوح مرّة أخرى. الرّاكب الظّمآن يبحث عن منبع يرويه، وعن دار هادئة مطمئنّة يستريح فيها، ويحسب أنّ جميعَ هذه في مسقط رأسه، وفي منشأه، في جيكور؛ وهل ظنّه صحيح؟!!!

«جيكورُ، جيكورُ : أين الخبزُ والماء؟
اللّيلُ وافى و قد نام الأدلّاءُ؟
والرّكب سَهرانُ من جوع ومن عطش
واالرّيحُ صَرٌّ، وكلُّ الأفق أصداءُ
بيداءُ ما في مداها ما يبيَّن به
دربٌ لنا وسماء اللّيل عمياءُ
جيكور مدّي لنا باباً فَنَدخُلَه
أو سامرينا بنجم فيه أضواءُ» (المصدر السّابق، ج١، ص٤٢٢)

أمّا عندَ الوصول إلى جيكور فالشّاعر يرى ما يخالف أحلامه وآماله؛ عندما ينظر في عالم الواقع إلى جيكور، يجدها خالية من الماء والخبز اللّذَين هما رمزا الودلاة والحياة وآيتا استمرار الحياة. يشاهد « بدر» أن اللّيل المظلم سيطر على جيكور، وزعماء النّاس وهداهم نيامٌ جميعاً. يُحسّ بأنّ الأبطال الرّاكبين والمجاهدين جياع عطاش، ولايوجد لهم حفاظٌ يقيهم البرد القارس في هذا اللّيل المظلم القُرّ، وكلّ شيءٍ مظلمٌ في صحراء الجمود، لاطريق فيها ولانور؛ هو يرى أنّ جيكور أمست المدينة. كان الشّاعر يبحث عن كوكب، ولكن الآن يجد سماءَ «جيكور» بلا نجمٍ ليلاً، ويصفه «عمياء». فالسّيّاب يسأل جيكور الرّحيمة أن تفتح لهم باباً، ويريَهم نجماً أنور حتّى يهتدوا به في هذه الدّنيا السّوداء العشواء. هو يطلب من «جيكور» أن تعطيه سميراً حتّى يحدّثه و يناجيه، هو لايريدُ أن ينام في اللّيل البارد الحالك، لأنّ النّوم يعني الهلاك والفناء؛ ويسأل ويسأل و...:

www.SID.ir

Archive of SID

«مَن الّذي يسمع أشعاري
فإنّ صَمتَ الموت في داري
واللّيلَ في ناري
مَن الّذي يحمل عبءَ الصّليب
في ذلك اللّيل الطّويل الرّهيب؟
من الّذي يبكي ومَن يستجيب
للجائع العاري؟
مَن يُنزِل المصلوبَ عن لوحه؟
من يَطرُد العقبان عن جرحه؟
ويُبدل الأشواك بالغار؟
أوّاه يا جيكور لو تسمعين
أوّاه يا جيكور... لو توجدين
لو تُنجبين الرّوح، لو تُجهضين
كَي يُبصرَ السّاري
نجماً يُضيءُ اللّيلَ للتّائهين» (المصدر السّابق، ج١، صص٤٢٢-٤٢٣)

عندما يرى «السّيّابُ» الواقع المسيطر على حياة أبناء جنسه، يسأل نفسه حائراً: «من الّذي يسمع أشعاري»، والموت سائد في داري، وليل الظّلم والاستعمار أخمد ناري الّتي أشعلتُها بشعري للدّفء شعبي. هو في هذه الحالة يبحث عن فدائي، هو يبحث عن المسيح حتّى ضحّى نفسه لخلاص أُمّته. هو يبحث عن ذلك المفدّي لنجاة الشّعب الجائع والعاري. هُو يطلب من يُنزلُ الشّعب المصلوب كالمسيح من الصّليب، ويطرد البزاة الّتي تتغذّى من نعشه وتعيش عليه. هو يُعاني من رؤية هذه المشاهد المؤلمة ويصيحُ. الشّاعر باحثٌ عمّن يبدّل شوك العار والسّخرية بوَرد العزّ والعظمة، فيرجع إلى «جيكور» الّتي هي أمُّ السّعادة وينبوع الرّأفة، ويسألها أن تسمعَ صراخه وصراخ شعبه المظلوم، يسألها أن تلدَ الرّوح مرّة أخرى. يلتمس منها أن تمنحه وتمنح الشّعب التّائهين نوراً يستضيئون به، ويهتدون بضوئه حتى لايغرقوا في هذا البحر المُضلّ المظلم.

«نزعٌ ولامَوتُ
نُطق ولاصوتُ
طلقٌ ولاميلاد
من يصلب الشّاعر في بغداد؟
من يشتري كفّيه أو مُقلَتيه

www.SID.ir

Archive of SID

من يجعل الإكليل شوكاً عليه؟
جيكور يا جيكور
شَدّت خيوط النّور
أُرجوحة الصُّبح
فأولمي للطّيور
والنّملِ مِن جُرحي» (المصدر السّابق، ج١، ص٤٢٤)

فمّرة أخرى ينظر إلى ما حوله، ويرى نفسه في حالة النّزع والاحتضار؛ ولكن لاخلاص منـــها. يراها يصيحُ ولكن بلاصوت. يُحسُّ بالطّلق ووجع الولادة، ولكن ليس إثره أيّ ولادة، يشعر بالآلام، ولاقدرة له للخلاص منها. في هذا المشهد يسأل الشّاعرالتّائه نفسه ممثّلاً لشعبه: من يصلبه في بغـــداد كالمسيح؟ ومن يجعل على رأسه إكليلاً من الشّوك؟ وفجاءَةً يعود إلى ذاته، ويجد في أعماق وجـــوده «جيكور»، ويناجيها ويريد منها أن لاتتركَ جسدَه مصلوباً تحت الشّمس المحرقة. يسأل منها أن تُغذّيَ الطّيور والنّمل من نعشه وجروحه، إذ لم يبق له سوى هذا الجسد المصلوب، فمنتهى غايته في هـــذه الحالة المأساويّة أن يصير طعاماً للضّعفاء، ثمّ هكذا ينوح ويصرخ:

«هذاطعامي أيّها الجائعون
هذي دموعي أيّها البائسون
هذا دعائي أيّها العابدون
أن يقذف البركان نيرانه
أن يرسل الفرات طوفانه
كي تشرقَ الظُّلمَه
كَي نعرف الرّحمة
جيكور ياجيكور
شَدّت خيوطُ النّور
أرجوحة الصّبحِ
فأولمي للطّيور
والنّمل من جُرحي» (المصدر السّابق، ج١، صص٤٢٤-٤٢٥)

في هذا الكلام تجلّى غرض الشّاعرالغائي أمام عيوننا، حيث يقول صريحاً إنّ رسالة دموعه ومطلب دعائه هو أن ينهض النّاس ويهتفوا ضدّ المستعمرين، كما يقذف البركان نيرانه. هُو يصرخ بأن يتّحد شعبُه، ويثور على المستكبرين والجبابرة حتى تقوَّض سيطرة الظّلمة والضّلال، ويهدم عـــرش الظّلـــم والطّغيان، وحَلّ محلّها النّور والرّحمة. ثمّ يكرّر سؤاله من «جيكور» مجتازاً ماضي الأمم، ويقول:

www.SID.ir

Archive of SID

«هذا حرائي حاكت العنكبوت
خيطاً إلى بابه
يهدي إليّ النّاس إنّي أموت
والنّور في غابه
يُلقي دنانير الزّمان البخيل
من شُرفَة في سعفات النّخيل
جيكور يا جيكور: حلٌّ وماء
ينساب من قلبي
من جرحيَ الواري
من كُلّ أغواري
أوّاه يا شعبي
جيكور ياجيكور هل تسمعين
فلتُفتَح الأبواب للفاتحين
ولتجمعي أطفالكِ اللّاعبين
في ساحة القرية هذا العشاء
هذا حصاد السِّنين
الماءُ خمرٌ والخوابي غذاء
هذا ربيع الوباء» (المصدر السّابق، ج١، صص٤٢٥-٤٢٦)

في هذه الأبيات جعل الشّاعر جيكور حراء مشيراً إلى قضية هجرة النبي (ص) من مكّة إلى «يثرب»، واختبائه في غار حاكت العنكبوت على بابه. وإن أخطأ الشّاعرفي ذلك، لأنّ ذلك الغار كما جاء في التاريخ كان «ثوراً» لا«حراء». كان اختباء النّبي في «ثور» منطلقاً إلى نجاة البشر، وخيوط العنكبوت مانعة على طريق الأعداء. أمّا في حراء الشّاعر فتهدي هذه الخيوط النّاس والعِدى إليه؛ وهذا الكلام ينبعث من يأسه المفرط. و في عودة الشّاعر لم يقذف النّبيّ الفاتح الأصنام من أعلى الكعبة، بل فيها يقذف النّور أصنام الدّنانير من أعلى القصور على أعضان النّخيل؛ وفجأة يرجع إلى نفسه ويجد فيها ضئيلاً من الرّجاء، فلذا يخاطب جيكور وهكذا يُناجيها: «خلٌّ وماءٌ ينساب من قلبي_من جُرحي الواري_من كُلّ أغواري». كما علمنا أنّ الجرح في شعر «السّيّاب» هو رمز الولادة والحياة الجديدة. هنا يبشّر «جيكور» بأنّ الماء ينساب من جروحه الملتهبة، ويلتمس منها أن تفتح أبوابها للفاتحين وتجمع أطفالها الفرحين للتّرحيب بهم في ساحة القرية؛ لأنّ ساعة النّصر حانت، وزمان

www.SID.ir

Archive of SID

الفتح آنَ، وجاء «المسيح» (ع) حتّى يحيل الماء إلى الخمر ويُضيف الناسَ. «فالسّيّاب» في هدا القسم من القصيدة يطرد اليأس والارتياب مبشّراً بالنّصر العاجل، إذا رجع النّور والماء إلى «جيكـــور»، إذ جاء المسيح، إذ عاد النّبيّ، إذ أثمرت السّنون وحان وقت حصادها. فالشّاعر يعود إلى نفسه، وينظـــر إلى ما حوله من القُوى، ويُهنّئ جيكور بأنَّ ماضيها الزّاهر قد عاد إليها؛ وهكـــذا ينـــشدُ الأبيـــات الأخيرة:

«أقوى من الأسوار هذا الجواد
أقوى جوادُ الحُلُم الأشهب
لأنّ الحديد المغتذي بالحداد
والمخذل الموكبُ
جيكور، ماضيك عاد»

بُراق الشّاعرقويّ إلى حدٍّيستطيع أن يجتاز الجدران الّتي جعلتها المدينة سجناً لجيكور –للبشريّة-.

.....

وديك القرية يهتف منادياً بذَوَبان ثلوج النّوم والرّقاد وهما رمزان جمود الطّبيعة وموت الأمـــم. يبشّر هتاف الدّيك هبوط الشّاعر الفاتح من معراجه الأكبر:

«هذا صياح الدّيک: ذاب الرُّقاد
وعُدتُ من معراجي الأكبر
الشّمس أمّ السّنبل الأخضر
خلف المباني رغيف
لكنّها في الرّصيف
أغلى من الجوهر
والحُبُّ: هل تسمعين
هذا الهتافَ العنيف؟
ماذا علينا؟ أنَّ عبد اللّطيف
يدري بأنّا... ما الّذي تحذرين
و انخطفت روحى، صاح القطار
ورقرقت فى مقلتيّ الدموع
سحابةً تحملني ثمّ سار

www.SID.ir

Archive of SID

يا شمسَ أيّامي أما مِن رجوع؟

جيكور،نامي في ظلام السّنينَ» (المصدر السّابق، ج١، صص٤٢٧-٤٢٨)

نتيجة البحث

وأخيراً يمكننا أن نقول: إنّ ديوان السّيّاب مليئا برموز مختلفة من الشخصيات والأديان والعقائد والبيئات، استخدمها الشاعر لتجسيد آماله وآمال شعبه المدسوسة تحت أقدام الجبابرة، و لتصوبر آلامه وآلام أمّته المضطهدة. امّا أبرز هذه الرموز فهي «جيكور» الّتي ذكرها الشّاعر في أغلب قصائده وأشعاره، وجعلها مصدر أيّ خير يرتجى، ومنبع كلّ برّ يؤمّل، فجيكور عند السّيّاب رمز النّور والحبّ والخصب والمطر والحياة، وحياتها حياة الأمّة، وموتها موت البشرية، وتحريرها من أسر المدينة، الّتي هي رمز الاستعمار والدّمار والقحط والجدب والنوم والغفلة، تحرير الإنسان من جميع قيود قيّدته. نرى الشّاعر القروي في بستان شعره آملاً أن تبعث «جيكور»، و تخضرّ من جديد؛ لأنّ بعثها يلمح إلى نجاة أمّته من الموت المخيّم عليهم، واخضرارها يرمز إلى ازدهار أمانيهم؛ فالشّاعر في هذا المضمار – وإن يتغلّب عليه اليأس أحياناً- مسيح يبذل كلّ جهده لإحياء قريته، لتحتضن أبناءه المشرّدين، و تُنقذهم من جميع شرور المدينة الّتي كلّ ما فيها كاذب وغيرحقيقي. هكذا يُرينا «بدر شاكر السّيّاب» قريته الصغيرة إله النّور، إله الحبّ، إله الخصب والمطر، وإله الحياة.

المصادر المراجع

الكتب

– ابن منظور، جمال الدّين،(١٤٠٥)، ***لسان العرب***، ط١، قم: نشر أدب الحوزة.

– أبوغالي، مختار علي، (١٤١٥/١٩٩٥)، ***المدينة في الشعر العربي المعاصر***، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،

– بلاطة، عيسى، (١٩١٧)، ***بدر شاكر السّيّاب دراسة حياته وشعره***، بيروت:دار النّهار للنّشر ش.م.ل.

– بيضون، حيدر توفيق، (١٩١١/١٤١١هـ)، ***بدر شاكر السّيّاب (رائد الشّعر العربي الحديث)***، بيروت:دار الكتب العلمية.

– پيشوايي، محسن ومجيسني عبدالخالق (١٣٨٥ش-١٤٢٦ق)، ***رمزية السّيّاب واستدعاء الشخصيات القرآنية***، تهران، مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها.

– الحاوي، ايليا، (دون تاريخ)، ***بدر شاكر السّيّاب (شاعر الأناشيد والمراثي)***، بيروت: دارالكتاب اللّبناني.

– الدّاية، محمّد رضوان، (٢٠٠٠)، ***في الأدب الأندلسي***، دمشق: دار الفكر.

– السّيّاب، بدر شاكر، (١٩٦٧)، ***قصائد***، اختارها وقدّم لها أدونيس، بيروت: دار الآداب.

– السّيّاب، بدر شاكر، (١٩٧١)، ***ديوان الشّاعر***، بيروت: دار العودة.

– السّياب،بدر شاكر، (٢٠٠٠)، ***الأعمال الشّعرية الكاملة***، بغداد: دار الحرّيّة للطّباعة والنّشر.

www.SID.ir

Archive of SID

– عبّاس، إحسان، (١٩٧٢)، ***بدر شاكر السّيّاب دراسة في حياته وشعره***، ط٢، بيروت: دار الثّقافة.
– المحاميد، عبدالسّلام (١٥/١٢/٢٠٠٧)، "***المرحلة التّمّوزية عند السّيّاب***"، www.qadsiafas.com
– معلوف، لويس،(١٣٦٧ش)، ***المنجد في اللّغة والأعلام***، تهران، معراج (افست).
– المقدسي، أنيس، (١٩٨٨-١٩٧٣)، ***الاتّجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث***، بيروت، دارالعلم للملايين.
– نيازي،شهريار وحسيني، عبدالله (١٣٨٦ش-١٤٢٧ق)، ***أسطورة تّموز عند رواد الشعر الحيث في سورية والعراق***، تهران، مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها.

www.SID.ir

Archive of SID

«جیکور» خون زندگی در رگ‌های شعر شاکر سیاب

دکتر وصال میمندی

استادیار زبان وادبیات عربی دانشگاه یزد

چکیده

«جیکور» -روستایی کوچک در استان بصره - نه فقط زادگاه «سیّاب»، بلکه رودی است که بوستان شعر او را سیراب می‌سازد و خون زندگی که نهال نورسته آرزو را در ژرفای روح بشریت تغذیه می‌کند ونهالی که سنگدلی ستمگران آن را پایمال کرده است؛ ستمگرانی که شهر - از نگاه «بدر» - به نمایندگی از آنان سایه مرگش را بر زندگی شهروندان، بویژه مهاجران ناآشنا افکنده است.

با دقت در دیوان «بدر شاکر سیّاب» و بررسی مراحل چهارگانه زندگی ادبی وی، یعنی: رومانتیک، رمزگرایی، واقع گرایی وبازگشت به خود؛ می‌یابیم که «جیکور» سرچشمه هر نیکی قابل تصوّر وچشم انداز تمام آرزوهاست. این روستا موجود زنده‌ای است که هم خود می‌زید و هم مردگان را حیات می‌بخشد و قلب تپنده‌ای که خون زندگی را در رگ های آدمیان جاری می‌سازد. «جیکور» سعادتی فراگیر است که شاعر به سوی آن پر کشیده، با آن همدم گردیده، در کنار آن دوران بدبختی و اوضاع نابسامان خود در شهر را به دست فراموشی می‌سپرد ونمادی که خود شاعر درباره آن می‌گوید: « جیکور دیوان شعر من است ... .»

واژگان کلیدي: جیکور، سیّاب، شهر، رمزگرایی

www.SID.ir